اللمسة الإنسانية وأثرها على البعد الجمالي العمراني

م/ علي عثمان الناجم
عضو الهيئة السعودية للمهندسين
- ص ب (٥١٩٠) الدمام (٣١٤٢٢)

aliuth5@yahoo.com

توطئة

المشاركة الإنسانية والساكن بخاصة ناقشنا تأثيرها الاقتصادي بل ودورها كمحدد رئيسي لمستقبل التنمية العمرانية في بلادنا ،في عددين سابقين من مجلة المهندس السعودية. وفي هذا العدد نطرح بعد آخر في تناول تأثير مشاركة المستخدم للبيئة أو بشكل أدق الساكن لها . وحتى ندرك تأثير قرارات المستخدمين على البيئة العمرانية علينا معرفة ما يحدث من تحولات جراء قراراتهم في البيئة المشيدة. وخاصة في القطاع السكني لكبر حجمه فيها . ويقصد بالتحول هو مايجريه الساكن من تغيير في وحدته السكنية . وقد بدأتُ بحوث هذا المحور –التحولات العمرانية منذ عام ١٩٩٥م . وآخر الأبحاث في هذا المحور كان ورقة عمل بعنوان: "علاقة الاستقرار السكاني بالمحافظة على الطابع المعماري " مؤتمر الأزهر الهنسي الدولي الثامن القاهرة، ٢٤-٢٧ ديسمبر ٢٠٠٤. واختير البحث لينشر في عدد خاص من المجلة العلمية المحكمة في الجامعة: Al-azhar University Engineering Journal-(AUEJ)"
وهي دراسات تبحث في مفهوم التحول وأهميته الاقتصادية والاجتماعية والجمالية.
فما تأثير مشاركته على بناء جمال المدينة وصناعة الطابع المعماري والحفاظ عليه؟ ومن أهم المواضيع المتداولة ويمكن أن تصطدم مع المشاركة المواصفات القياسية . فهل تؤثر المشاركة على هذه المواصفات القياسية ؟ وبالتالي هل يتطلب تطبيق المواصفات عزل المشاركة؟ أم يمكن الجمع بين الاثنين ؟
هذه الدراسة تحاول استقصاء قضية مشاركة الساكن في القرارات البيئية التي تخصه وتتعلق به،ومناقشتها والإجابة على ما أثير من أسئلة نحوها.

المؤشرات الاقتصادية لمشاركة الساكن

نلخص ما تناولناه سابقاً عن حجم التحولات العمرانية وتكلفتها. ،فكيف تحدث التحولات؟
الناس يملون على البيئة من حولهم رغباتهم واحتياجاتهم.حتى تأتي كما رسموها.لكن القوانين تقف عثرة أمام آمال الناس ورغباتهم .فهي نظام واحد والناس متعددون ورغباتهم متعددة. فيحاول الساكنون إعادة الصياغة ما استطاعوا ليملوا أذواقهم وعاداتهم على ما يملكون ويسيطرون.ولكن بحسب مركزية القوانين تتقلص اختياراتهم. ومتى تمتع الساكن بحرية أكثر كانت له حافزاً لتغيير بيئته لتلائم رغباته. ولهذا أي بيئة تقيد أيدي ساكنيها ليست بيئة مستغلة [١] وما أثر ذلك على الاقتصاد الوطني ؟ .يرى ترنر أنه كلما زادت المركزية كلما تضخمت المشكلة وحصل الانفصام بين التموينات الإنشائية ومتطلبات السكان . ويرى أن الإسكان الإقتصادي هو عبارة عن دهاء محلي شخصي أكثر منه إنتاج ذو تحكم مركزي[٢] وقد توصل المؤلف في دراسة أنه " بحسب المركزية المفروضة تلك تقل

التعديلات المطلوبة مستقبلاً أو تزداد . فحيث يزداد نفوذ هذه الأنظمة وتقل بالتالي فيها مشاركة الساكن ،يزداد التحول . وبالعكس كلما قل نفوذ هذه الأنظمة وبالتالي إزدادت مشاركة الساكن وسيطرته في القرارات المتعلقة به كلما قل التغيير والتحول في هذه البيئة " وكذلك التحولات التي تتعرض لها البيئة العمرانية يكون نتيجتها عمليات هدم وبناء ، يتكبد إثرها المجتمع خسائر جمة تبلغ ملايين الريالات. فمشاركة الساكن وسيطرته على القرارات التي تهمه في مسكنه وبيئته العمرانية لها أثرها الكبير في خفض خسائر المشاريع الإسكانية بعد إستخدامها ورفع الجدوى الإقتصادية لها" [٣]وماهي التقديرات الأولية لهذه التحولات؟ لقد قدرت تكاليف الإصلاحات نتيجة التحولات في حي بأكثر من مائة مليون ريال سعودي [٤] . فكيف بالمدينة؟ وكيف بالدولة ؟ وكيف على مستوى الخليج؟
وبصيغة أخرى كم من التحولات الكبيرة الحجم تحدث ؟وكم من الأموال يمكن أن توفر باشراك الساكن في القرارات السكنية والبيئية التي تهمه؟ وكم بالمقابل من المليارات يمكن أن تهدر بإهمال وضع الساكن والمستخدم (عموماً) في الصورة في عملية التصميم والتخطيط؟ فالقضية في غاية الأهمية .

التلازم بين صياغة الطابع المعماري ومشاركة الساكن

وإذا كانت التحولات العمرانية كبيرة الحجم و تأثيرها نتيجة للمشاركة الإنسانية ً كبيرإقتصاديا ، فما تأثير هذه التحولات علىالجمال العمراني والحفاظ على الطابع المعماري للحي دون تحول؟ تحول الطابع المعماري من أهم سمات الأحياء الحديثة التي افتقرت الى مشاركة الساكن في قراراتها.فمثلاً بلغ التحول في واجهات أحد الأحياء (الأقل مشاركة للساكنين) في فترة وجيزة تقدر خمس سنوات حوالي ثلاث أرباع الواجهات (٧٢%) .فتحولت من واجهات بألوان متعددة الى واجهات ذات لون أبيض ، نتيجة لعملية التحول . وحتى في عدد الأدوار فقد تحول طابع الحي الأقل مشاركة من طابع الحي بدور واحد من نسبة ٨٩% الى ٥١% نتيجة إضافة الساكنين دور ثاني في ٣٨% من الوحدات. بينما أحد الأحياء الأكثر مشاركة واللصيق للأول ،والذي أنشئ في نفس الفترة (بين عامي ١٩٨٠م - ١٩٨٣م) فكان من الأصل في غالبه من دورين (٧٨%) و حافظ على نفس طابعه الأصلي بنفس ألوانه [٥] ،

تحولت واجهات الحي(الأقل مشاركة للساكنين)من واجهات بألوان متعددة(أعلى) الى واجهات ذات لون أبيض ، وحتى في عدد الأدوار فقد تحول طابع الحي من طابع الحي بدور واحد الى دورين.

الأحياء التي انشئت في نفس السنة منذ أكثر من عشرين سنة (مع الحي الأقل مشاركة) حافظت على طابعها بسبب ارتفاع مشاركة الساكن .الحي الأول في اليمين في الدمام والآخر على بعد حوالي الفين كيلومتر في سكاكا

وبصيغة أخرى فإن مشاركة الساكن في القرارات التي تتعلق بسكنه لها أثرها على جمال الحي والمدينة. أي في المحافظة على طابع الحي دون تحول الى غالبه . والعكس في الأحياء التي تقل فيها مشاركته.

ولهذا نكاد نجد صعوبة في الحصول على مثال من البيئة المعاصرة ، على ما نقول مثل الأحياء التقليدية التي تزخر بهالة عجيبة من الجمال والتعبير الفني نظراً لعظم مشاركة الساكن في قراراتها . فمثلاً أحياء الطراز الخليجي على ضفاف الخليج العربي في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية تدهشك من المعالجات المزدوجة . أو أحياء الطراز الحجازي التي تأخذ المساكن القديمة بلب الفنان من سحر حلل رواشينها .أو في الطراز الجنوبي ذو القصابات التي أحالت برج الفيصلية الى لوحة رائعة . إنها ليست يد معماري إنما يد ساكنيها. بل إن مقاييس الجمال عند المستخدمين يمكن أن تكون أساساً للمقاييس البصرية الأساسية في التصميم المعماري الحديث . وأيضاً يمكن أن نجدها عند أولئك الذين يستمدون مفرداتهم ومقاييسهم من العمارة القديمة كعمارتنا الخليجية القديمة ." فمثلاً المساكن الحكومية (في الإمارات العربية المتحدة) والتي تقوم الدولة بتشييدها وهي ذات تصميم نمطي متكرر يلاحظ قيام مستخدمي المسكن وبعد الانتقال اليها في تغيير التشكيل البصري للمسكن وبما يتوافق مع منظومة الأفكار والتشكيلات والرؤى لدى المستخدم " [٦] . في مؤلفه (أسس التصميم في العمارة) يقول سميثيز" ان تذوق العمارة ليس مقصوراً على المعماريين فحسب بل يمكن القول ان العامة تستخدم مقاييس بصرية بديهية عندما تنقد المباني المعاصرة. وهي مقاييس ينبغي أن تكون من المفردات الأساسية للمعماريين.هذه المفردات التي اشتقت من أمثلة قديمة لا يزال تأثيرها قائماً على عامة الناس في الوقت الحاضر. وهذا لايعني أنهم لا يفضلون سوى تصميمات تلك الحقب في تلك الأشكال ،بل يعبرون عن تفضيلهم للمميزات الجمالية التي يرونها في تلك الأعمال والتي يفتقدونها في أعمال اليوم"[٧] واذا كان على المعماري أن يحدد توجها معمارياً له فلا بد أن تكون رسالة المستخدمين انطلاقاً له اليها. يرى سميثيز في كتابه "ان على المعماري أن يعد اطاراً من التوجهات أي المفاهيم النظرية التي تمكنه من ايجاد تصميمات تجمع بين القيم البصرية المعمارية وتلبي في الوقت نفسه الاحتياجات والوسائل العملية. ولا بد للمعماري أن يكون قادراً على رؤية الأهداف العملية في ضوء التوجهات الجمالية أثناء جهوده للجمع بينهما....(الى أن يقول)إن الاسلوب العلمي لتأسيس توجهات معمارية مقبولة قد يتم من خلال تقييم الأذواق الشخصية.أي استطلاع رأي مجموعة كبيرة من الناس عن رغباتهم وميولهم المعمرية"

الجمع بين اللمسة الإنسانية و المواصفات القياسية وتوحيدها

لاشك أن من طبيعة المعايير الهندسية والإقتصادية السهولة في تطبيقها . ولهذا السبب فإنها تعزز وتدعم تطبيق الحلول القياسية , والمواصفات الموحدة [Uniform Standards [٨]. ومعلوم أن المواصفات القياسية تمثل مستوى معين أو درجة من الجودة العالية والمناسبة لغرض معين[٩] .وبما أن االتقييس Standardization في التصنيع (كالإنشاءات بإنتاج وحدات جاهزة) يعني تطوير وتطبيق للمواصفات التي تساعد في إنتاج حجم كبير يتكون من أجزاء يمكن أن توصل أوتربط في الحال مع أخرى بدون تعديل ، فإن بناء مشاريع سكنية Appartments حسب مواصفات معينة عادة هو الشكل الإقتصادي للمؤسسات التطويرية الكبيرة وشركات المباني[١٠]. ولهذا أيضاً تحرص الجهات المنشئة للمشاريع السكنية غالباً أن ينتج عن إختيار الهيكل الإنشائي إنشاءات أكثر إقتصادية[١١]. وهذا ما يدفع منفذي كثير من المشاريع لإستخدام الإنتاج بالجملة Mass Production . فإستخدام الإنتاج بالجملة يمَكِن من التحكم في المنتج النهائي ليأتي وفق المعايير الفنية المرسومة فيحقق طموحات الجهة المخططة الفنية والإقتصادية بسهولة ويسر وأقصر مدة زمنية وأقل تكلفة وأعلى جودة .

ولا تقتصرآثار تطبيق المعايير والمواصفات القياسية على السهولة والقدرة على التحكم الدقيق على الجودة الفنية والجدوى الإقتصادية فحسب ، بل وحتى القيمة الجمالية ، إذ يمكن رسم اللوحة المقترحة لشكل المجمع السكني أو الحي جميعه ، بالملامح والأبعاد المختارة والإيقاع المطلوب ، بدقة متناهية أيضاً ،على اعتبارأن مفهوم الجمال صفة تلحظ في الأشياء وتبعث في النفس إحساساً بالإنتظام والتناغم[١٢] ولهذا يرى Macasai في مؤلفه Housing أنه و بغض النظر عن الشكل الخارجي الذي ينتهي إليه المعماري فإن مبنى الشقق لابد وأن يشكل خارجه إيقاعاً Rhythm . بل أحد رواد الجمال المعماري (وإن كان ينتقد أعمال العمارة الحديثة) يرى أن التقييس يمكن أن يكون طريقة أخرى للتعبير عن النظام القوي .فيرى أن الأفكار الخاصة بالأنظمة والطرز والظروف والتقاليد والبيئات المحيطة - ومن خلال توظيفها للتقييس بطريقة غير قياسية - تنطبق على معضلتنا الأزلية الخاصة بالعلاقة بين التقييس والتنويع...إنه الإستغلال الذكي لكل ماهو ظرفي ومحيطي إضافة إلى إدراك التحديات الحتمية التي يفرضها نظام التقييس[١٣]

فالمواصفات والمعايير الفنية تدفع الى صناعة النموذج الواحد والحس الجمالي الواحد أو التابع لجهة تخطيطية أو تصميمية معينة تقريباً. بينما الناس أجناس وجماعات وأفراد تحكمهم قوانين وعادات وثقافات وقيم مختلفة هائلة تناسب كل فئة عن الأخرى المختلفة وتناسب اسلوب حياتهم ومتطلباتهم وراحتهم ،البعيدة عن أحادية الحل . و قد رأينا سلفاً آثار إغفال الجانب الإنساني في القرارات كيف أنه أحدث التغيرالحاد في الأحياء والذي كلف عشرات الملايين وأوجد طابع مختلف كلياً عن الأصل بالرغم من ابداع المعماريين في بعض الوحدات السكنية . فما الحل ؟
أموس رابابورت يرى أننا بفرض الاعتبارات الفنية والاقتصادية فان هذه الاعتبارات تصبح المحدد الرئيسي للتنظيم الحضري وبالتاليل لن يمكن الاستجابة للنواحي الثقافية والاجتماعية. لأن النتيجة المتوقعة من تطبيق الاعتبارات الفنية الاقتصادية هي مخططات –لأحياء – مكررة متشابهة. و بسبب أن المعايير الفنية الاقتصادية سهلة التطبيق فانه يرى أن استخدامها يدفع الى تطبيق الحلول ذات المواصفات القياسية والمواصفات الموحدة Uniform Standards . وفي نفس الوقت توجب البعد عن الحلول المعقدة الملائمة ذات الصبغة الثقافية الاجنماعية المتعددة المتنوعة . أي المتعددة المواصفات . وبالتالي يرى أنه سيكون لدينا ليس الآن مسكن قياسي فقط بل وحي قياسي يمكن انتاجه بالجملة. وهذا لايتناسب مع الحلول التقليدية للمجتمعات المختلفة والتي لا تبرز التنوع في الحلول فقط وعلاقتها باسلوب حياة كل مجتمع بل و تحدد أي عنصر يمكن الغاءه بسهولة وأي عنصر أو تنظيم يمكن أن يبقى. (Rapoport 1980) . وهذه الاعتبارا لثقافية الاجتماعية هي سر روح الحي والمدينة حيث تترك لمستها الانسانية . جميل أكبر يرى أنه "بدون هذه اللمسة الإنسانية فلن تثرى المدينة ولن

تحيا، فالمدينة الحية هي التي يشارك جميع السكان في إتخاذ قراراتها مع مرور الزمن" [٤] . والتعددية الانتقائية الإنسانية لتحقيق التنوع المطلوب قي النظام الإسكاني والمحافظة على استقراريته ، تؤكدها نظرية Ashby :إن تحقيق الإستمرارية في نظام (مثل الإسكان) مرهون بأن يكون تنوع نظام التحكم (متخذي القرار) بقدر تنوع النظام المطلوب التحكم فيه (الوحدات السكنية)[٥].

ولهذا فإن Turner ينبه أن هناك مشاريع (إفتقرت لمثل هذه اللمسة) لم تنجح مثل : Pruitt-Igoeو Fergusleigh Park. حتى ازيلت من الوجودفلم تغير الحي بل أزالته كلياً .وهذه مكلفة جداً تتعارض والأهداف الاقتصادية للمواصفات القياسية .

وحينما وضع ترنر حلوله اقترح أنه أياً كان الإسكان فليس المهم ماهو ولكن ماذا يصنع للناس وهذا يقود الى التحكم الذاتي فيه.كما أن الاقتصاد في الاسكان عبارة عن استثمار ذاتي وليس ذو تحكم مركزي وانتاج مصنعي صرف. وهذا يقود الى استخدام التقنية المناسبة للإسكان . كما أن السكان لهم مقدرات مالية محددة .وهذا يقود الى اعطاء مجال مختلف ومتنوع كثيراً لهم ، ينتقوا منه . أو بمعنى آخر تخطيط الاسكان عبر قواعد أو مبادئ وليس قوانين قاطعة محددة لا ثاني لها. ضع القوانين والمواصفات- فقد تكون لا بد منها و ضرورة- لكن إعط فيها مجالاً للانتقاء والاختيار للسكان.

الاقتراح هو: إضفاء اللمسة الإنسانية -أوالمشاركة الانسانية واعطاء السكان على الأقل فرصة في الاختيار والانتقاء من مجموعة متعددة من الطرق أو المواد أو الأبعاد أو..... أو بصيغة أخرى من المواصفات.

بمعنى محاولة الاتجاه نحو صناعة قواعد ومبادئ يحلق فيها السكان والمستخدون ويختاروا ما يناسبهم ويلبى احتياجاتهم وفي نفس الوقت يحافظ على سلامتهم والآخرين وطابع المدينة في أجمل واجهات . فمثلاً نحتاج عزلاً حرارياً للجدار . فلا تفرض نوعاً محددا أو مادة معينة . بل افتح مجالاً أكبر من مستوى المواد الى الطريقة التي يمكن تحقيق نفس الغرض وفي نفس الوقت توظف الابداع .دعهم ينفذوا الطريقة التي تناسبهم بشرط أن تحقق الأداء الحراري أو- كما هو الدارج والغالب - بمادة عازلة (غير ملوثة) . أي إعط مجالاً رحباً للناس في الاختيار. نريد عزلاً حرارياً هو القاعدة . وطالما عندنا قاعدة فإن لدينا اذاً ولا شك ، طرقا عديدة.

المقصود أننا نحاول ايجاد مساحة واسعة للمسة الإنسانية عن طريق المشاركة السكانية في القرارات البيئية التي تهمهم . والسبب أن لها دورها الكبير في تحسين البيئة العمرانية . إذ ستحافظ بإذنه تعالى على ثبات طابع المدينة مدة أطول[16] وستساهم في تحقيق أهداف الجهات التخطيطية بشكل دقيق وستعزز النواحي الاقتصادية للمشاريع الإسكانية[١٧] .وستوفر متطلبات السلامة والأمان للساكن مع إدراكه لأهميتها وضرورتها[١٨]. وستشجعه للاستثمار في مجتمعه برضا واقتناع .

المراجع

[1] أكبر جميل "عمارة الأرض"،دار الثقافةالإسلامية، جدة ، ١٩٩٢

[2] J,F,Turner"Housing by People" London,Morion Boyars,

[3] الناجم علي " دور مشاركة الساكنوسيطرته في التأثير علىإقتصاديات المشاريع السكنية" ندوة دور التخطيط والتصميم في كلفة المشاريع السكنية ،جامعة الدول العربية،تونس ١٩٩٤م،لم ينشر.

[4] الناجم علي " آلية التغير وتأثيراتها الاقتصادية" المؤتمر العلمي الدولي الخامس لكلية الهندسة ،القاهرة ١٩٩٧م،

[5] الناجم علي " الطابع المعماري في الحي المعاصر بين التحول والثبات " مؤتمر انتربلد٩٧،القاهرة،١٩٩٧م،

[6]"المسكن الإماراتي" مجلة البناء، العدد ١٣٨، ٢٠٠٢م

[7] سميثز"أسس التصميم في العمارة"ترجمة محمد الحصين ، الرياض ،١٩٩٦م

[٨] Rapoport,A "Culture,Site -Layout and Housing " Architectural Association ,Vol.12,No.1,1980

[٨] Webster's Third New International Dictionary

[٩] Webster's Third New International Dictionary

[10] Turner ,J"Housing by People"

[11] Macsai “Housing “ Wiley International Publication”Newyork,1976

[12] حموده،راوية"الزمانو المكان في صياغة جماليات بنية اللغة المعمارية والعمراني" المؤتمر العلمي الدولي الخامس لهندسة الأزهر،القاهرة،١٩٩٧

[13] فنتوري روبرت"التعقيد والتناقض في العمارة" ترجمة سعاد مهدي ١٩٨٧م

[14] أكبر ،جميل"عمارة ألأرض في ألإسلام"دار الثقافة ألإسلامية،جدة١٩٩٢

[15] W.Ashby”Introduction to Cybernatics”Willey,ch11.London ,1969 and Turner,j”Housing by People”Marion Boyars,London,1976

[16] لناجم،علي "طابع الحي المعاصر بين التحول والثبات " مؤتمر الدولي الرابع للبناء والتشييد Inter Build 97،مصر ١٩٩٧

[17] الناجم ،علي "التأثير على إقتصاديات المشاريع السكنية بفهم آلية التغيير في البيئة العمرانية" المؤتمر العلمي الدولي الخامس لهندسة الأزهر،القاهرة،١٩٩٧

[18] الناجم علي " أهمية المعايير الفنية لسلامة المستخدم" مجلة عمران – الحديثة الإصدار- تحت النشر

نشرت هذه المقالة تحت عموان " اللمسة الانسانية وأثرها على البعد الجمالي العمراني
في مجلة المهندس –السعودية – العدد أخبار المهندس –العدد الرابع –محرم / صفر ١٤٢٤